

لا بنور الإيمان» أن يدرك حقائق الحياة (ج ٢ ، فصل ٥٣ ، ص ٨١١).^(١٣) بل إن ذلك الفيلسوف المسلم يحظى بثناء خاص من إحدى شخصيات الرواية هو المثقف سامسون كاراسكو في معرض إخباره بون كيهوته بأن كتاباً عن مغامراته قد صدر بتأليف سيدي حامد: «بورك سيدي حامد بننجلي الذي سجل لنا أعمالك العظيمة...» (ج٢، فصل ٥٣، ص ٤٨٦).

هذا الموقف الإيجابي نحو سيدي حامد لا يؤدي إلى إعادة تقييم الموقف ضد المسلمين. فهؤلاء لا يزالون الأعداء الذين حاربتهم أسبانيا، كما يقول بون كيهوته لسانكو، وهي تنعم بالحماية المقدسة من راعيها فارس الصليب الأحمر، أو القديس جيمس (ج٢، فصل ٥٣، ص ٤٨٠). وتتضمن إشارة بون كيهوته إلى المسلمين هنا وصفهم بأنهم «حشود هاجر» أي أحفاد إبراهيم عليه السلام من هاجر أم إسماعيل (وهي تسمية قديمة استعملها المسيحيون، كما فعل اليهود من قبل للتمييز بينهم كأحفاد إسحاق بن إبراهيم من الزوجة الشرعية سارة، والمسلمين كأحفاد إسماعيل، أو الإسماعيليين). لكن في استمرار هذا التصور السلبي كثيراً من المغزى من وجهة نظر الكاتب الأسباني: فإذا كان المسلمون هم الأعداء، فإنه لا يجب أن يغيب عن ذهن الأسبان أن الذي حفظ بون كيهوته، الكتاب الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، واحد من أولئك المسلمين الأعداء، وأن الرجل لم يمنعه دينه من أن يكون فيلسوفاً يدرك الحقيقة وينشرها على الناس لينتفعوا بها. إن سيدي حامد بننجلي فضلاً لا يجب أن يُنسى، كما يقول سرفانتيس ضمناً، وعلاقته بأسبانيا أكثر تجذراً وأهمية من علاقة ذلك الموريسكي ريكوت الذي يعتبر أسبانيا وطنه رغم نفيه عنها، بل إنها أكثر تجذراً وأهمية من علاقة بعض الأسبان أنفسهم بوطنهم. فلم يفعل كل الأسبان ما فعله المسلم العربي سيدي حامد.

التغير الذي يحدث في شخصية بننجلي يؤكد - في تصوري - إدراك سرفانتيس لما وصفه المؤرخ الأسباني أميريكو كاسترو بالعلاقة التكاملية بين الثقافة العربية والحياة

(١٣) في الواقع أن وصف سيدي حامد بأنه مسيحي يرد على لسان سانكو بانزا في الجزء الأول، الفصل ٢٠، ص ١٥٣. لكن الإشارة تتكرر في الجزء الثاني، الفصل ٢٧، ص ٦٤٦، ضمن الصورة الأكثر إيجابية له في ذلك الجزء.